الحب والجمال

أتذكر أني قلت لأخ لي في مجرى الحديث: « قد يستطيع المرء أن يكتب ما يرتسم في مخيلته في أية حالة إلا في حالتين، فإنه يعجز عن الكتابة فيهما، الأولى: عندما تكون الفكرة غير واضحة في دماغه، والثانية: عندما تكون الفكرة واضحة وضوحا تاما. ففي الحالة الأولى يعجز المرء عن الاتجاه الذي تأخذ كتابته، والثانية لأنه يرى وضوح الفكرة وتعمقها في النفس فلا يرى أن الألفاظ كافية لتفسير ما هو منبسط الأجنح على دائرة الفكر » .

تذكرت هذه الكلمة وأنا أفكر أن أكتب كلمات عن الحب والجمال، أستطيع بتلك الكلمات أن أرسم أثرا من الآثار التي تبقى مطبوعة في ذهن الإنسان كلما لابسهما. وليس بالهين أن نتصور ذلك الأثر من أي فرد آخر لو لم ألمسه ويلابس فكري لحظات من الزمان كانت كافية أن يريني صورة عن الحب والجمال في أسمى مظاهرهما طالما نزعت عاطفتي إلى إدراكهما من صفحات كتب النابغين والعبقريين. فكنت القى كلمات ليست إلا ترديدا لصدى ضعيف يقع في النفس عند ملابستها للجمال وعن إدراكها للحب في تلك الصورة السامية.

فما هو الجمال؟ وما هو الحب؟ إننا نتصورهما تصورا واضحا جليا وندرك أثرهما في النفس، لكن هل نستطيع أن نرسم ذلك الأثر في سطور، تكون مرآة لغيرنا يرى فيها كل ما نرى في الجمال أو الحب من قدسية وبهاء وافتتان؟

أى معنى تضم كلمة الجمال إلا أنها معنى شاملة لا توصف وإنما يشعر بها المرء، وأى مبنى للحب إلا أنه تناسق يجد بنا دون أن ندري. إذن، ما ذا عساني أكتب عنهما وأنا عاجز هذا العجز الذي يشرف من قيمتهما ويزيد في أثرهما كلما فكرت فيهما؟ فقد

أستطيع أن أطيل حديثي عنهما وعن حالتي كلما تذوقتهما، لكن ذلك لا يعني أنني صورت في سطوري ما أشعر به ويخالجني، وقد أستطيع أن آتى بتاريخ عاطفتي والأدوار التي مرت بها، من اندفاع باعثة الشهوة إلى مادية مصدرها التفكير إلى تسامي أساسه الجمال المطلق غير المحصور في دائرة من دوائر المادة الضيقة، لكن ذلك لا يكفي لكي يطلع القارئ فيؤمن بفكرتي التي أومن بها لأن حديثي إليه صدى لتموجات لها كل الأثر ولها كل المعاني في أعماق نفسي ليس إلا.

إني أعترف الآن وقد صرعني الحب للمرة الثانية بأني كنت أعتقد سابقا أن العلم المادي كاف وحده ليكشف لنا عن طلاسم الحب وأسرار الجمال، ويرينا مصدره، فنقتنع ويستريح بالنا من هذا الجانب، وقد دام اعتقادي السابق مدة طويلة بالنسبة لما قطعته من حياتي، لكن لم تكتشف لي طلاسم الحب، ولم أعرف أسرار الجمال، بقدر ما تجاهلت وتناسيت تلك المبادئ العلمية نحوهما عندما دق ناقوس الحب في سويداء قلبي وعندما تنبهت من غفلتي المادية إلى مصدر روحي هو الحب.

للكلام بقية هذه تتمتها:

... إذن، فالحب ليس أساسه الجمال وإنما سره أو مصدره بالأحرى تناسب وتناسق في قوى وضعف الفردين المتحابين، وليست القوة هنا أو الضعف بمقياسهما الجسمي أو بصورتهما المادية وكفى بل إن ذلك المقياس يضاف إلى مقياس من قوة وضعف النفس والصلة الروحية بين الفردين.

وأيضا هذا التعريف أو التعليل للحب ضعيف أو سخيف حيث انه استنتاج منطقي لا يتصور له المرء وجودا في دائرة خارجة عن حدود خيال واسع فضفاض.

ولعله أفضل تعريف للحب أن يقال فيه إنه جلال لا يحد انه بكونه حبا عميقا هو صورة عن النفس الإنسانية التي لم يدرك العلم الحديث بعد كنهها وسر حيويتها.